تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

الجاهلية : شعرها ، وعاداتها ، ودياناتها

ترجمة حسن حبشى

ولندع هذه الناحية برهة قصيرة لنلقى نظرة عابرة نلم فيها بمكانة المرأة ونتلمس أثرها فى المجتمع ليرى القارىء كيف كانوا ينظرون إليها فى المجتمع الجاهلى ، وذلك أنهن كن فى مرتبة سامية ذوات أثر ملموس ، يخترن أزواجهن بأنفسهن ، ويرجعن إلى منازلهن الأولى إذا سيئت معاملتهن أو لم يجدن الراحة المنشودة فى حياتهن الجديدة ، وكن فى بعض الأحيان هن اللائى يطلبن الزواج وفى أيديهن العصمة ، وما كن جوارى أو متاعا بل كن مساويات لأزواجهن يلهمن الشاعر القصيد ، ويثرن نخوة المحارب فى القتال ، ويبعثنه على الاستماتة والقوة . ولعل أصل فروسية القرون الوسطى يرجع إلى بلاد العرب الوثنية ، وإن الفروسية وامتطاء متن الصافنات حبا فى المخاطرة وتخليص الأخيذات ، وإغاثة الملهوف والنساء اللواتى أحاقت بهن المصائب ، كل هذه الأمور هى من الطبائع الجوهرية للعربى الصحيح ؛ وإن لفظ « الفروسية » ليشير إلى راكب الحصان ذى الطبع الشريف ، كما أنه لا ينال لقب « فارس » إلا من كانت تجرى فى عروقه دماء النبل [1] ، ولكن نبل النساء لا يظهر أثره من احترام الرجال إياهن وبطولتهم من أجلهن فحسب ، بل تنعكس صوره أيضاً فى الأغانى والأقاصيص وفى التاريخ ؛ من ذلك أن فاطمة بنت الخرشب كانت إحدى ثلاث عرفن بالمنجبات ، وكان لها سبعة أبناء ، ثلاثة منهن يسمون « بالكملة » ، وهم ربيع وعمارة وأنس . وفى ذات يوم أغار حمل بن بدر الفزارى على بنى عبس وهى القبيلة التى تنمى إليها فاطمة ، ثم أسرها ، ولما أخذ بخطام البعير وابتعد بها عن الحى وأهله صاحت به : « أى رجل ضل حلمك ، والله لئن أخذتنى فصارت هذه الأكمة التى أمامنا بينى وبينك ـ ورائنا لا يكون بينك وبين بنى زياد [1] صلح أبداً ، لأن الناس يقولون فى هذه الحال ماشاءوا . وحسبك من شر سماعه » ، قال : « إنى أذهب بك حتى ترعى إبلى » ، فلما ايقنت أنه ذاهب بها رمت بنفسها على رأسها من البعير ، فماتت خوف أن يلحق بنيها عار فيها [2] . ومن بين الأسماء التى غدت مضرب المثل فى الوفاء بين النساء فكيهة وأم جميل ، أما عن فكيهة فيروى أن السليك بن السلكة [3] أغار على بنى عوار (بطن من بطون مالك) فلم يظفر منهم بفائدة ، وأرادوا مساورته فقال شيخ منهم « إذا عدا لم يتعلق به شىء ، فدعوه حتى يرد الماء فإذا شرب ثقل ولم يستطع العدو وظفرتم به » ، فأمهلوه حتى شرب ثم بادروه ، فلما علم أنه مأخوذ جاملهم وقصد لأدنى بيوتهم حتى ولج على امرأة منهم وهى فكيهة فاستجار بها فمنعته وجعلته تحت درعها واخترطت السيف وقامت دونه ، فكاثروها فكشفت خمارها عن شعرها وصاحت بإخوتها فجاءوا ودافعوا [4] عنها حتى نجا من القتل [5] ولولا ضيق المقام لكان من أمتع البحوث أن نسرد تفاصيل أوفى عن القصص التى وردت فى ذكر نبيلات النساء فى الجاهلية ، ولقد صورت شعورهن المرهف بالشرف والوفاء ، ولكن لعلى أكون قد وفقت فى اختيار أمثلة تصور الشرف العريق والذكاء الحاد والعاطفة العنيفة . وكان الكثيرات منهن ينظمن الشعر الذى ينشدنه فى المآتم ويصغنه قلائد فى رثاء موتاهن ، ومن أسطع البراهين على سمو أخلاق المرأة فى الجاهلية ورفعة نفسها أن ترى أم البطل وأخواته يقضين على أنفسهن بملازمة الحزن عليه والاشادة بمحامده .

---

(1) W. Blunt & Lady Anne Blunt : The Seven Golden Odes of Pagan Arabia, P. 14.

(١) هم أعداؤها وكان زوجها من بنى زياد (المترجم)

(٢) الأغانى ج ١٦ ص ٢٢ س ١٠ ـ ١١

(٣) وكان أسود البشرة ولذلك يقال : أغربة العرب ثلاثة عنترة وخفاف بن ندبة والسليك بن السلكة (المترجم)

(4) Freytag : Arabum Proverbia, Vol II, P. 134.

الاغانى ج ١٨ ص ١٢٧ س ٥ ـ ١٩

(٥) ذكر الأغانى بعد هذه القصة أبياتا قالها السليك فى مدحها ، لا نرى بأسا من إيرادها اتماما للفائدة الأدبية :

لعمر أبيك والانباء تنمى لنعم الجار أخت بنى عوارا
من الفخرات لم تفضح أباها ولم ترفع لاخوتها شنارا
كأن مجامع الارداف منها بقا درجت عليه الريح هارا
وما عجزت فكيهة يوم قامت بنصل السيف واستلبوا الخمارا

وقد ذكر ابن قتيبة فى كتاب المعارف (طبعة وستفلد) ص ٤٤ (جوتنجن ١٨٥٠ م) أن قاتل السليك : أنس بن مدرك الخثعمى (المترجم)

أما مدح العاشق لمحبوبته فكانت له لهجة أخرى ، وذلك أن القصيدة لا تدع ناحية من نواحى المحاسن الجثمانية إلا وتصفها وصفا شاملا ، وقل أن نجد اهتماما أو تقديراً للجمال الخُلقى ، ولا يشذ عن هذا سوى مطلع قصيدة للشنفرى ، أما سير شارلز ليبل الذى يهم كل مشتغل بالأدب العربى التعرف إلى رأيه لعطفه على الشعر العربى القديم ودقته فى نقل صوره ، فيقول عنها « إن هذه القصيدة أمتع صورة ترسم لنا الأنوثة التى خلفتها لنا الوثنية العربية . وقد رسمتها نفس اليد التى خطت اللامية المنقطعة النظير ، وأدت خلالها المثل الأعلى لقوة الرجولة وصلابة [1] البطولة »

لقدْ أعجَبَتنى لا سَقوطاً قِنَاعُها
إذا ما مشَتْ ولا بِذاتِ تَلَفُّتِ
تبيتُ بُعَيْدَ النومِ تهْدِى غَبوقَها
لِجَارتِها إذا الهَدِيَّة قَلَّتِ
يَحُل بِمَنْجَاة مِنَ اللومِ بَيْتُها
إذا ما بُيُوت بالمَذمّةِ حَلَّتِ
أمَيْمَة لا يُجْزِى نَتَاها حَلِيلُها
إذا ذُكِرَ النِّسْوان عَفَّتْ وَجَلَّتِ
إذا هُوَ أمسى آبَ قُرَّة عَيْنه
مَآبَ السَّعِيد لمْ يَسَلْ أينَ ظلتِ
فدقتْ وَحلَّتْ واسبكرَّتْ وأكملتْ
فَلَوْجُنَّ إنْسَان من الحُسن جُنَّتِ [2]

وإن مثل هذا الخلق لا يمكن أن ينضج إلا فى جو طليق حر بعيد عن التكلف والقيود المعدوم أثرها فى الصحراء . وإذا نظرنا إلى هذه الأبيات وما توحيه من المعانى نجد أنها كافية فى الرد على أولئك الذين يزعمون أن الاسلام قد رفع منزلة المرأة الاجتماعية ، وإن يكن من بعض الوجوه قد رفع مستواها الأدبى فى الحضارة إلى حد عظيم [3] ولكن يوجد بجانب هذا أمر آخر ذلك أنه فى بلاد كهذه حيث القوة هى الحق ، وحيث نرى أسلوب الحياة الأولى يجيز للأيد امتلاك مايريد ، ومن استطاع مقاومته احتفظ بنفسه ، فى مثل هذه البلاد كان عجيباً ألا يندثر الجنس الضعيف (النساء)

أما عادة الجاهلية فى وأد البنات أحياء فترجع - كما يظهر لنا - إلى المجاعات الجمة التى كثيراً ماتمنى بها بلاد العرب نظراً لقلة سقوط الأمطار ، وكذلك إلى محافظة موهومة على الشرف ، وكان الآباء يضنون أن يطعموا أفواهاً ليس لها من قيمة فى الحياة كما كانوا يخشون أن يجلبن لهم العار إذا سُبين فى حرب ، ومن ثم كانوا يعدون ولادة الأنثى خطباً كما تبين ذلك مما ورد فى القرآن [1] (ويَجْعَلون لِلهِ البَنَات سُبْحَانهُ ولهُمْ مَايشتَهون ، وإذا بُشِّرَ أحَدُهُمْ بالأنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وهوَ كظيم . يتوَارَى منَ القَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِه ، أيُمْسِكهُ عَلى هُونٍ أمْ يَدُسُّهُ فى التراب ، ألا سَاءَ مَايَحْكمون)

ويقال فى أمثالهم [2] « تقديم الحرم من النعم » وقولهم « دفن البنات من المكرمات [3] »

(يتبع)

حسن عبشى

(1) Ancient Arabian Poetry, P. 81

(٢) المفضليات (طبعة ثوربك) ج ١ ص ٢٢

(3) Goldziher : Huh. Studien, Part a, P. 295 399

(١) سورة النحل ١٦ : ٥٧ - ٥٩

(2) Freytag : Arabum Proverbia, Vol I, P. 228.

(٣) شرحه ص ٢٢٩ ج ١

لسان العرب

لابن منظور الافريقى المصرى

مرتبا ترتيبا حديثا ومصححا تصحيحا علميا على أصوله الخمسة وهى الصحاح للجوهرى وحواشيه والنهاية لابن الأثير والجمهرة لابن دريد والمحكم لابن سيده والتهذيب للأزهرى

ارسل عشرين قرشا صاغا باسم مدير دار الصاوى للطبع والنشر والتاليف - بجوار زاوية الشوشترى بشارعى الموسكى والأزهر بالقاهرة - يصلك الجزء الأول منه فى نهاية هذا الأسبوع ومعه اشتراك فى الجزء الثانى منه .

ملاحظة : ثمن الجزء بعد ظهوره خمسة عشر قرشا ، واجرة البريد لمن فى القطر المصرى قرشان صاغا وضعفه لمن فى الخارج .